أم ...

للكاتب النمسوى فنسنز شيافكي

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

[هذه قصة أم — فرقت عن زوجها — حاولت وجاهدت وضحت فى سبيل رفع ولدها إلى ذروة المجد ... فهل وفقت ؟ ... ذلك ما أباته « فنسنز شيافكى » فى سياق هذه القصة ، وهى من روائعه وبعد « شيافكى » من كتاب « النمسا » للبرزين فى فن القصة ، إذ يمتاز بطلاوة أسلوبه وصدق وصفه وسمو معانيه] (مصطفى)

فى ضحوة يوم رائع من خريف سنة ١٨٤٤ وقفت سيدة فى نافذة دارها المعروفة باسم « ستاج هوس » فى حى « ليبولد ستادت » تلقى بنظرات حائرة قلقة إلى الطريق ؛ وكانت تبدو فاتنة حسناء على الرغم من أنها تدنو من عقدها الرابع ... أما وجهها فكان مجالاً لانفعالات شتى تعانيها امرأة طلقها زوجها ، فاضطرت إلى إعالة بنيها ... وأخذت على عاتقها تربيتهم وتنشئتهم ...

ويغلب على أخلاق تلك السيدة — وهى من الطبقة المتوسطة — الرزانة والتواضع والهدوء ... ومع بساطة ثوبها شاعت فيه الأناقة والبهاء ... وينبعث من عينيها شعاع يعبر عما تستران من قلق ، ويجول فيهما التوسل إذا ما انحسرت أهدابهما ...

حانت ساعة الغداء فطُرح على المائدة خوان ناصع نظمت فوقه ست صحاف — صنعت فى « فينا » — وتوسط المائدة زهرية محلاة بالزخارف وصفت فى أنحاء الغرفة أريكة وستة مقاعد — كسيت بالمخمل — وقام فى أحد جوانبها صوان بأدراج محاسية الحلقات ... استقرت فوقه ساعة فوق قاعدة من الرخام ... أما فى الجانب المقابل فصوان آخر عليه صليب غطى بزجاج — رسمت عليه بعض الطيور المائية والبرية — ويوجد فى ركن متطرف « بيانو » وضعت عليه زهرية فيها زهور ذابلة أما جدران الغرفة فزينت باللوحات الزيتية ... والصور التذكارية ...

جلس فى الحجرة التالية غلام فى السادسة عشرة : باهت الوجه ، يعلوه الشحوب ... مكباً على لوحة الرسم وقد انصرف إلى عمله بكل حواسه . بينما جلست على مقربة منه فى النافذة فتاتان تحيكان فى صمت ، وبعد هنيهة اندفع طفل فى الثامنة من عمره إلى أمه ودفن رأسه بين ثنايا ردائها ... وراح يئن ويصيح : « إنى جائع يا أماه » فقالت الأم فى تهكم وقد أضجرها بنواحه : تناول شيئاً من الملح فسوف تغدو عطشان أيضاً ... » وراحت تحدث نفسها : « لست أدرى ما الذى يفعله إلى الآن ، وهو يعلم أنى سأقدم إليه اليوم « طبقه المحبوب » . لابد أن شيئاً مهماً عاقه عن العودة ... »

وفى هذه اللحظة دخلت خادمة العائلة العجوز « وابى » تحمل باقة من الزهور وضعتها على المائدة ، فسألتها سيدتها فى دهشة :

— من ذا الذى بعث بتلك الزهور الجميلة ؟ !

— إنها من لدنى ياسيدتى ، وسأهديها إلى سيدى « جونى » ... فاليوم من أدق أيام حياته ، ولكنى متأكدة من رضائه ... لقد قال لى عند ما تركنا هذا الصباح « انظرى يا بتى » فهو يناديني « بيتى » لا « وابى » كالآخرين ، فهو طيب القلب ... قال : « انظرى يا بتى » إذا عدت بأقدام ثابتة راسخة وفى سترتى زهرة فاعلمى أنى نلت ما كنت أطمع إليه ، وإذا كانت ساقاى متخاذلتين والزهرة فى قبعتى ... فهذا معناه الفشل والإياب بخفى حنين ... »

فقالت سيدتها : « ولكنه لم يطلعنى على شىء مما تقولين ... يا إلهى لو أنه نال الإذن الذى يودّه ! إنى لخائفة من رفض طلباته لأنى سوف أكون الملومة ، فقد كنت أستحسنه وأقف إلى جانبه ضد أبيه ... »

— انت مخطئة فى زعمك ... فسوف يجاب إلى طلبه وينال بغيته .

— إنى لست خائفة من ذلك ، فهو لا يهتم بالجيش كاهتمامه بتكوين فرقة موسيقية ... ولكن ... ماذا سيؤول إليه أمره

إن هو فشل ؟ سوف يفقد آماله فى العثور على وظيفة فى الجيش ... ويعود إلى البحث عن عمل موسيقى حقير فى المطاعم ... وهذا النوع من الأعمال ... آه طالما حذره والده من ذلك ... إن تلك الأعمال شاقة جداً وأفقها ضيق ، فواحد فى المائة هو الذى ينال مأربه ويرتقى إلى ذروة المجد ... » فقاطعها يوسف بعد أن ترك لوحة الرسم قائلا :

— ولكن جونى سيكون ذلك الشخص ... فهو عبقرى ... وقد عزف لى لحنه « الوالس » الجديد البارحة ... ولم أسمع من قبل شيئاً يسيطر على النفس ويملك الفؤاد كذلك اللحن ...

— أصبت يا بنى ، فهذا اللحن جعلنى أضحك وأبكى فى آن واحد ... إنه ليذكرنى بلحن أبيه ... ولكن لحن جونى يداخله شىء من الحرارة ... شىء من — لا أدرى بماذا أعبر . من المؤكد أنى لم أكن مخطئة عند ما تشاجرت مع أبيه فى هذا الشأن ... لأنى أعتقد أن جونى لا يقل عن أبيه عبقرية ونبوغاً ... إنى أعرف بعض الشىء عن هذا اللحن ؛ لأن أباك كان يعزف لى أحياناً أنغامه الجديدة فى ركن من الحديقة عند ما خطبنى ... كنت أصاحبه بالعزف على قيثارتى ... وكان يرجّع تلك الأنغام ويعيدها حتى تبلغ شأو الإتقان .

— لست أدرى سبباً لتلك القسوة التى يصبها والدنا على « جونى » ! ؟

— ليس من شأنك أن تتحدث عن أبيك أيها الأحمق ... ربما كان على حق ؛ ولكن قلبى لا يدعنى فى سلام . إن ذلك يعنى كل السعادة لذلك الفتى . فهذا يخبرنى قلبى ... » فصاحت « وابى » فى اضطراب .

— هه ... ها هو سيدى جونى ينحدر إلينا فى الطريق ... ولكن لا أستطيع أن أتبين إن كانت الزهرة فى سترته أو فى قبعته ! »

فقالت الأم فى مرح :

— إنها لا شك أنباء سارة ... فها هو يشير بيده إلى .

— الزهرة ؟ ! أين الزهرة ؟

— إنها من المؤكد فى سترته ...

وبعد لحظات هرول « جونى ستروس » وهو شاب فى التاسعة عشرة ذو قوام نحيف وشعر أسود وعينان براقتان ... وصاح وهو يمسك بورقة فى يده : « نلته ... نلت الإذن .. » فقالت الأم وهى تتمالك على مقعد :

— « شكراً ! شكراً يا إلهى ... » فركع جونى إلى جانب كرسيها ... وراح يعطر يديها بالقبل . وصاح فى حماسة :

— آه يا أماه ... إن ذلك كله يرجع إلى فضلك أنت ... أيتها الأم العزيزة . سترين كيف أنى سأشرف لقب العائلة ... إنى لتجرى فى عروقى دماء آل « ستروس » إن رأسى يموج بالأنغام ، منها ما يحزن ومنها ما يفرح ... إن عائلة ستروس ستفخر بى ... ولن تهدأ ثائرتى حتى أضيف إلى مجدها التالد مجداً طريفاً ...

— « إذن فقد نلت الإذن للظهور أمام الجمهور ... » ولكن ما لبثت الأم أن قالت فى لهجة حزينة : « لست أدرى كيف يتلقى أبوك ذلك النبأ ! » فأجاب جونى فى غير مبالاة :

— ليس هناك من يكترث لما يقوله أبى ... كم كنت حزيناً عند ما أخبرونى أنه يجب أن أحوز موافقة والدى ... لولا أن السيد « بال » ذلك الحاكم الطيب جعل الأمر فى غنى عنها ... والآن ليس هناك ما يعوق ظهورى أمام الجمهور مدوياً لإحدى الفرق الموسيقية ... أتعلمون ما الذى سيعود علىّ من ذلك ؟ ! الحرية ... الشهرة ... المجد ، حياة ترفع الإنسان فوق ذلك العالم الخامل . وداعاً أيتها السجلات ... لقد حطمت قيودى بعزمى الراسخ واعتدادى بنفسى ... ضعونى على منصة المدير ودعونى أنصت إلى التصفيق ... ثم استمعوا إلى تلك الألحان العذبة الشجية التى ستنساب فى تسلسل ... »

وأخذ — فى نشوة تلك الحماسة — يراقص والدته ثم خادمته العجوز « وابى » .

خيّم الصمت على الجميع حول المائدة ما عدا جونى الذى طفق يتحدث عن مشروعاته : —

سأطلق على لحنى الجديد إسم « قلب أمّ » وسنعزفه فى صالة « دمرير » ذلك المطعم الشهير ... والكل يدرك ماذا أعنى بذلك الإسم ... إنه أنت ... أنت وحدك يا أماه ... يامن عاونتنى على صعود أولى درجات المجد ... ولكن والدته كانت فى شغل عنه ،

متجهة بتفكيرها إلى والده ، وانتبهت واقترحت على جوني أن يسمى اللحن الجديد « الأمر بالمعروف »

* * *

وأخيراً حل اليوم الخامس عشر من أكتوبر ، وعلم الجمهور من الإعلانات الضخمة مدار الحديث في الأندية والحوانيت والملاهي ... أدرك أن « جوني ستروس » كوّن فرقة موسيقية يديرها لعزف لحنه الجديد في صالة « دمرير » في « هترنج » ...

واجتمع جميع أهالي « فينا » لمشاهدته : إنّا نصراً يسمو إلى أوج المجد ، أو فشلاً يهبط إلى الحضيض ... وبلغت حالة التوتر أقصاها بين ذلك الجمع الحاشد ، ... وكان لظهور ذلك الفتى الفنّان بمظهر الفنّان بتجاعيد رأسه وبريق عينيه أجمل وقع متباين في النفوس ... وتمتمت النساء وقد استخفهن الإعجاب فرحن يهتفن ويشدن بعبقرية ذلك الفنان ... بينما جعل فريق المعتدين يصفقون ويسفرون ... وقوبل لحن المقدمة بشيء من الفتور وتصفيق ضئيل خلو من حرارة الإعجاب ...

وجلست في المطبخ — المجاور للصالة — امرأة تحاول أن تسيطر على أعصابها التي شملها الاضطراب ... فقالت « وابي » العجوز — وكانت جالسة بالقرب منها : « ما هذه إلا المقدمة ... ولحننا هو التالي ... »

وكانوا إذ ذاك قد بدأوا في عزفه ... وانتهى لحن « الأمر بالمعروف » ... انقضت لحظة من الصمت ... لحظتان ... ثلاث ، ثم إذا بعاصفة من التصفيق ترجّ أنحاء الصالة ... وكان ذلك باعثاً على تورّد وجنتي الأم بعد أن علاها الشحوب ... كانت تقدّر مبلغ الإخلاص الذي يقابل به الجمهور لحن ولدها ... وفجأة سكنت الضجة وأعيد عزف اللحن من جديد وعادت عاصفة التصفيق أشد من الأولى ... كانت تزيد كلما أعيد عزف اللحن حتى لكأن ليس لها نهاية ...

جلست الأم في مكانها المخفي — وقد ارتعشته لنفسها — ترتجف من الابتهاج ... وأبكمها الفرح فعجزت عن النطق ... وكانت نيران المطبخ تلقي على وجهها ظلالاً أرجوانية ... وبغتة اندفع « جوني » إلى ذراعيها واحتضنته ، وتدفقت دموع الفرح على وجنتيها في انفعال ظاهر ... فصاح جوني : —

أسمعت يا أماه ؟ ! لقد كنا على حق دائماً ... والآن يجب أن نعمل على إغاظة ذلك الرجل العجوز ... والذي ... »

واندفع خارجاً ... وبُدىء في عزف لحن « لورنا ولس » الذي ألّفه والده ... فثار الجمهور وأخذ يصيح ويطلب إعادة لحن « الأمر بالمعروف » فكان هذا فوزاً له ... وانتصاراً على أبيه .

وتنهدت « وابي » العجوز وأغرورقت عيناها بالدموع وقالت « آه ... لو يرتد لي شبابي وأعود جميلة ... لقبّلت سيدي جوني مراراً ، وتكراراً ... »

* * *

وفي طريق العودة في عربتهم ... مالت الأم على ولدها وطبعت على جبينه قبلة مترعة بالحنان ... وقالت :

جوني ... إن هذه ساعة حزني وسعادتي التي لا تقدر يا بني ... إني لأشعر كأني ولدتك من جديد ... »

وكانت هذه هي الكلمات الحقة التي قدّر لأم أن تعثر عليها ... أم ضحّت بنفسها في سبيل ولدها ... تجلّدت أمام المشقات وذلّلت ما عرض لها في سبيل تحرير عبقرية ولدها من الأدثار ...

(طنطا) مصطفى جميل مرسي

لجنة النشر للجامعيين

تفخر بأن تقدم

الرواية الكاملة

التي اعتبرها النقاد رعامة القصص في الأدب العربي

ابراهيم الكاتب

للاستاذ الكبير

ابراهيم عبد القادر المازني

٣٢٠ صفحة يطلب من الثمن ٢٥ قرشاً

مكتبة مصر ومطبعتها

وفي الخارج من

فلسطين — مكتبة الطاهر إخوان — يافا

لبنان — المكتبة الأهلية — بيروت

العراق — مكتبة المعارف — بغداد

البحرين — المكتبة الوطنية — البحرين